العرب
السبت 2019/08/31
السنة 42 العدد 11453

# صرخة لإيجاد منفذ للهروب من الواقع المرير

## حكاية الفكرة في رواية «امرأة تلامس الخيال» لميشال أبوراشد

"أنام ملء جفوني عن شواردها/ ويسهر الخلق جراها ويختصم"، ربما يلخص هذا البيت الشعري لأبي الطيب المتنبي مسألة السلاسة وفي مقابلها الاصطناع في الكتابة، فالأدب الجيد أدب سلس منساب لا مصطنعا ولا معقدا. فالسلاسة هي هدف الكاتب الأول، ومهما كانت الفكرة التي يناقشها، فإن غابت عنها الانسيابية ستخفق في أن تخلق لها جمالياتها الخاصة، وبالتالي تفشل في بلوغها للقارئ.

ناتالي الخوري غريب

حين تكون الرواية شغفا بالحياة، ومغامرة في المشي على الحواف، وسقوطا آتيا معلوما في الهاوية، وحين تتلاعب الصورة بمشاعرك وتداعب عقلك عبر حثه على المشاركة في اللعبة، وحين تسلبك اللغة قدرة الفصل بين الخيالي والحقيقي، وتجرّك نحو الغرف من الخيال، وتقنعك بأن الخيالي هو الحقيقي، نحن إذن أمام مشهد روائي يجدر بنا التوقف عنده، لأنه مغاير عن السائد في الوصف والفكرة والمعالجة، كما قدمها ميشال أبوراشد في روايته القصيرة "امرأة تلامس الخيال.. الحقيقيال".

> الرواية جمعت بين الطبيعة الروحية والجسدية في آن، متنقلة بين الرهافة الرومانسية والفظاظة الواقعية القاسية

وإذ تكمن قوة الفكرة في القدرة على تجسيدها في سياق حياتي معيش، فالكلام النظري المجرد، له قراؤه وهواته المصرون على رؤية أي نص شيفرة يجدر تفكيكها بحسب مقولات الفلاسفة، الأقدمين منهم والمحدثين. في حين أن تجسيد هذا الكلام في نص واقعي أو خيالي، يعطيه حياة فيثمر.

### الحقيقة والخيال

الطرح الجديد لميشال أبوراشد في روايته الأولى، الصادرة حديثا (2019) عن دار سائر المشرق، هو أنه جعل للفكرة حكاية، مؤمنا بأن للفكرة حقا بأن تكون لها حكاية، بما تعنيه الحكاية من مواجهات وصراعات وحركة. وإن كان بعض النقاد يعيبون على كتاب الرواية هيمنة الأفكار على الأحداث، وقد لاحظنا في المشهد الثقافي العربي، اعتماد الرواية بوصفها منبرا للخطاب الأيديولوجي، وبخاصة الروايات التي تناولت الحروب أو واكبت الربيع العربي، إلا أننا مع نص ميشال أبوراشد أمام حكاية الفكرة، في متعة التفاصيل عند تكوّنها ومسار تطورها وجدلية بقائها، وذروة وجودها؛ وقد جعل علم النفس والفلسفة جغرافية فكرته التي تتكون على أرضهما، ومن ثم جعل الخيال أرضا لتلقّي الحقيقة، ليس على سبيل الكشف والانكشاف أو الحدس الصوفي، إنما جعلها أرضا خصبة في مقابل الواقع.

تحمل فكرة الرواية مصير سيزيف في مشقة اللاوصول، وإن كان الهدف تجاوزا وتخطيا لكل العوائق؛ ففي عنوان الرواية "تلامس الخيال" تبقى في حيز فضاء المتخيل الشخصي، وهو ما أعطى نصه هوية اللامكتمل إلا بفضاء متخيل آخر، فالفكرة في نص ميشال تبحث عن علاقات وجودها في المعية الإنسانية لكنها محكومة بالتجريد، إذ يبقى اللمس في حيز المحال، وإلحاح الرغبة يسير في خط مواز مع خيبة المسعى عند جميع شخصياته: فالشخصية الأولى، عبير، كالعطر، يشم ولا يلمس، كفكرة أبوراشد تماما، تقابلها الشخصية الثانية التي تستكمل مسيرها؛ نغم، الصحافية، نغم صوت الحقيقة، الباحثة عنها، العابرة إليها حتى الخواتيم.

لنص ميشال أبوراشد طبيعة روحية وجسدية في آن، يتأرجح بين الرهافة الرومانسية القصوى والفظاظة الواقعية في أقسى تفاصيلها. يحاول أن يقدم الخيال علاجا حقيقيا بنقله إلى حيز الحقيقة عبر نحت مصطلح "الحقيقيال"، ليصبح مسار الرواية سعيا إلى حق اختيار الحلم وتاليا الحياة، بعيدا من التفاضلية وأسبقية الأحكام في الأجدى والأنفع. كل إنسان هو سيد أحلامه، وهو سيد اختباراته، عبر الخيال، وكما ورد في الرواية "فالحقيقة والخيال لا يتناقضان، بل يتكاملان حدّ الانصهار. ونقيض الخيال هو الواقع، والحقيقي يختلف كل الاختلاف عما هو واقعي".

يحاول أبوراشد أن يبني عمارته في مثلث متساوي الأضلاع؛ الواقعي، الحقيقي، الخيال. هو نوع من الابتعاد عن عقم الدوائر في إعادة المعيش. عبر مثلث حياتي مقابل: الصحافة، وانغماس ممتهنيها في الواقع انغماسا يقص أجنحتهم، تمثل هذه العينة الصحافية؛ نغم، في إعادة فتح الماضي لإكمال قصة لا تنتهي، والإفادة من نصيحة خبير في الصحافة قد انعزل في أرشيفه: عن ضرورة أن تلازم مبادئ القصة في العمل الصحافي. بئس المقالات والتقارير أيا كانت، ما لم تحمل روح الخبر والتفاصيل.

الزاوية الثانية: الطب النفسي في اختباراته أساليب علاج جديدة، يمثله؛ ريمون نصار، الذي يمثل الانغماس في بواطن الذات، والتجريب في أعماق الآخرين، مصدر إلهام لطمع الشهرة والابتكار، ومحاولة إسقاط ما يجول في باله، إذ يقول "أريد أن أجعلك تقدّرين قيمة خيالك، كل التخيلات التي تخالجك ما هي إلا حقيقة في ذاتك، وذاتك حقيقية، وبالتالي الخيالات حقيقية".

أمّا الزاوية الثالثة فهي النزعة الرومانسية في احتفال عناق الأرواح، ولمس الروح دربا إلى التحليق مع الإلهة، كذلك رغبة الأجساد في شغفها ملامسة من تعشق، عبر شخصية؛ عبير، وما تمثله "عبير هي ذاك الغبار السحري الهائم في أعمق نقطة من كل امرأة قابلتها يوما. والنساء متشابهات في العمق، في سحر الأنوثة التي يقتلها الواقع ولا تشع إلا في الخيال. أليست الأعماق خيالا؟ أليست الذات خيالا؟".

### الهروب من الواقع

أما الإجابة عن السؤال: كيف يسرد ميشال أبوراشد حكاية فكرته؟

يسرد حكايته بلغة تنبض شغفا، بلغة تحترف ثقافة الحياة، لغة الوصل والفصل في حركية، تتسارع وتيرتها حينا، (في الكلام عن الجسد والرغبة والأسئلة الملحة)، وتهدأ أحيانا أخرى، (حين اتخاذ القرار والإجابات والخروج من المأزق)، كذلك يلجأ أبوراشد إلى أقنعة الرموز، إلى المعاني المؤجلة، عبر الانفلات من المعاني الجاهزة والتأويلات الجاهزة، وإلى فلسفة اللحظة التي تلبس ألف قناع وقناعا في تفكيك علاقاتها بالعالم، الداخلي والخارجي. فأبوراشد يحترف التعبير في نصوصه عن اختزال الزمن في لحظة، ويلخص العالم في لحظة من الوصال، هذه اللحظة تحدد المسار، وبعد ذاك، إما السقوط، وإما المزيد من التحليق في الخيال.

وحول تصنيف هذه الرواية أستحضر قول الناقد عبدالدائم السلامي في كتابه كنائس النقد "ما يحضر لحظة القراءة هو النص وليس جنسه، الجنس يبقى معلقا على غلاف الأثر ولا يدخل المتن". وقد تكون هذه الرواية القصيرة هي صرخة أبوراشد في إيجاد منفذ للهروب من هذا الانغماس المرير في الواقع، وما تقتضيه واقعية أمانة الإعلام وقضاياه في الميدان، وقد تكون الصداقة التي ينشدها في الرواية إثباتا على أن الآخر ليس جحيما، بل هو نعيم اكتشاف الذات في البحث في زواياها. هي محاولة رسم لسيناريوهات الغياب والحضور، سيناريوهات النشوة الفكرية عند محاولة لمس الآلهة.

وأعتقد بأن المشهد الثقافي الراهن، بحاجة إلى هذا النوع من الروايات الجديدة المنفتحة على كل أنواع التفاعلات النصية، المحمّلة بالأسئلة الوجودية، المحرضة على المزيد من التفكير والشغف بالحياة.

الحقيقة والخيال ليسا متناقضين (لوحة للفنانة سارة شمة)

# القصيدة والحوار والتغيير

حميد سعيد
كاتب عراقي

سألني كاتب صديق، قائلا: الآن وبعد كل هذه الأعوام من علاقتك بالشعر، هل تغيرت نظرتك إليه، وما الذي يمكن أن تفعله القصيدة في قلب موازين الحياة، ورتابتها وجراحها النازفة؟

حالما استمعت إلى سؤال صديقي هذا، خطر ببالي ما قاله جوزيه ساراماغو: الأدب وحده لا يستطيع فعل شيء، كل الأعمال الأدبية العظيمة التي كتبت على مرّ التاريخ، لم تستطع أن تحول دون الوضع الكارثي الذي نعيشه.

أما أنا فقد قلت لصديقي الذي سألني: أشكرك على هذا السؤال، الذي يتيح لي، وربما أتاح لغيري، موقفا يتسم بالمراجعة، إنْ لم أقل بالتراجع عن مقولات بالغنا فيها، ونحن في ذرى حماستنا وحسن نياتنا، عن دور القصيدة وقدرتها الأسطورية في قلب موازين الحياة -حسب وصف السؤال- وسنكتشف أن تلك المقولات التي نبالغ فيها، ليس سوى قبض الريح، إذ واصل الشعراء كتابة قصائدهم من امرئ القيس حتى يومنا هذا، ومن ملحمة كلكامش حتى آخر قصيدة كتبها شاعر طيب القلب، وما زال العالم على ما هو عليه، وسنعرف بعد حين أن القصيدة في أحسن حالاتها تعبر عن وعي، وهذا الوعي قد يكون مصدره فكريا، وقد يكون مصدره جماليا، فإذا أتيح لها -للقصيدة- أن تتفاعل مع وعي المتلقي، ربما فتحت نافذة على المستقبل، يطل منها الإنسان على شيء من الأمل والتفاؤل، وهي في ذلك مثل جميع ما أنتجه الإنسان من ضروب الإبداع، مما يختزن من طاقات جمالية، مثل الموسيقى والغناء والرسم والسرد، في ما تعبر عنه من وعي ومن ثمّ ما تنتج من وعي.

إن ما تتركه الكتابة بعامة، ومن ضمنها القصيدة من أثر وما تلعب من دور في التغيير، كان وما زال، موضع خلاف وتباين شديد، فبعضهم يرى فيه طاقة استثنائية للتغيير، وبعضهم يراه محض جهد ضائع.

وعلى سبيل المثال، حين قرأت مقولة موريس نادو "إن الرواية التي لا تغير المؤلف ولا تغيّر القراء، ليست بالضرورية، وهذه حقيقة، فبعد قراءة -المحاكمة- لسنا الأفراد السابقين أنفسهم". وضعت تحتها عددا من علامات التعجب والاستفهام، فهي مبالغة لا تقترب من واقع الحال، ولو كان الأمر كما هو في هذه المقولة، لتخلينا عن كل ما قرأنا من روايات، أو لاتهمنا عشرات الألوف من قراء الروايات، بضعف الإدراك، بينما رأى الفوضويون الروس، إن زوجا من الأحذية، أكثر نفعا من جميع كتابات شكسبير! وهذه حماقة مزعجة لا يستغربها من عرف حماقات المتطرفين، كل أنواع المتطرفين.

إن المتغيرات سواء كانت عامة أم ذاتية، ليست نتاج عامل واحد، بل هي نتاج عوامل عديدة تتشابك وتتكامل، منها فعل الإبداع بما يطرح من أسئلة تتفاعل مع وعي الآخر، لتنتج أسئلة أخرى توسع أفق الحياة وتمهد للتغيير.

إن العامل الثقافي ومن مكوناته القصيدة هو نتاج مؤثرات عامة، تاريخية واجتماعية، من دون أن نلغي العامل الذاتي فيه، وما أقصده في قولي، العامل الذاتي؛ هو المبدع ذاته، وإلا لو تجاوزنا هذا العامل، لكان الإبداع أنموذجا واحدا يتكرر ويكبر من دون أيّ فروق أو سمات خاصة أو مميزات، لكن في الوقت ذاته، إن لهذا العامل سماته التي تترك أثرها على ما هو عام، وليس من إبداع متميز إلا إذا كان من حاضنة تاريخية واجتماعية متميزة، وهكذا يكون التغيير في تفاعل ما هو تاريخي واجتماعي مع روح الإبداع وجوهره، ومثل هذا التفاعل هو الذي يكرس الشخصية القومية ويمنحها قوة الإرادة ويدفع عنها حالات الضعف والانكسار والانهيار.

في العام 1995 وبتاريخ 16 يونيو، كنت قد تلقيت دعوة للمشاركة في ندوة بموسكو، يقيمها الحزب الديمقراطي الليبرالي الروسي، لمناقشة حالات الحصار المفروضة أيامذاك على عدد من البلدان ومنها العراق، وقد استجبت للدعوة بحماسة، ليس لأهمية الأمر الذي ستناقشه فحسب، بل لأنني كنت أود التعرف عن كثب على المتغيرات التي تعيشها روسيا بعد غروب المرحلة السوفييتية.

ومصدر ثقتي هذه، أن أمة تقدم للحضارة الإنسانية، غوغول وبوشكين وتورغنيف وتولستوي وديستوفسكي ومايكوفسكي وأخماتوفا وباسترناك وتشيخوف وسولجنستين وغيرهم، لا يمكن أن تفرط بخصوصيتها وتتنازل عنها.

وكتبت في رسالتي: إن الأمم العريقة التي تتوفر على عمق حضاري، تصاب بحالة من أسوأ حالات الوهم حين تدفعها أوضاع شاذة وسلبية للبحث عن مقومات مشروع نهضتها في محيط خارجي، والأمة الروسية لن تحقق سعادتها بانتشار محلات الهمبرغر وبنطلونات الجينز والسيارات الرياضية وعصابات المافيا والدعارة.

الكتابة لا تغير بشاعة العالم (لوحة للفنان سبهان آدم)

> ربما الكتابة لا تغير الواقع لكن العمل المشترك بين وعي الكتابة ووعي القراءة، هو ما يمهد للتغيير العام والذاتي

وأخيرا أستطيع القول، يذهب بي الظن إلى أن ما أشار إليه سارتر، عن العمل المشترك بين وعي الكتابة ووعي القراءة، هو العامل الذي يمهد للتغيير، العام والذاتي، وما دمنا بصدد القصيدة والتغيير أود أن أتوقف عند رأي ملفت للنظر قال به إيميه سيزار، "الشعر، إعادة غزو النفس بالنفس"، وأتساءل إنْ كان يريد من هذا الرأي، كون الشعر مثل جميع الفنون، حيث يبدأ الحوار بين العمل الفني، قصيدة كان أو عملا موسيقيا أو تشكيليا، وبين ذات المبدع، وهذا الحوار ينفتح على ما هو جديد، سواء كان هذا الجديد فكريا فيدرك بالعقل أم جماليا فيدرك بالحدس وبالإحساس، وهكذا يكون التغيير.

أما سوى ذلك مما يعدّ من فنون التعبئة، فهي تقدم الرضا ولا تعنى بالوعي، فتخاطب الآخر بما يعرف وما يريد مما يستقبله من دون أي نوع من أنواع الحوار.